الإمام علي عليه السلام والأقليات العرقية في الكوفة

المدرس الدكتور
بتول فاروق محمد علي الحسون
جامعة الكوفة ـ كلية الفقه

المقدمة:

لم تكن الكوفة الا مركزا لتبادل الاسرى وهم من غير العرب عادة وقد عوملوا بطريقة قاسية منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ومن بعده الخليفة عثمان بن عفان، وحين تولى الامام علي عليه السلام الخلافة اتبع سياسة مغايرة لما سبقه.

لقد شرع الإسلام مبدأ المساواة في الانسانية لكل بني البشر سواء اكان ذكرا ام انثى، عربيا كان ام اعجميا وساء اكانوا فقراء أو اغنياء أو اصحاب نسب عريق أو وضيع. ولقد لخصت هذه النظرية في المساواة في الآية القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات ١٣.

إن التشريعات الإسلامية طبقت على الجميع دون اعتبار لصفة اخرى غير صفة التكليف الشرعي وقد آخى القران الكريم بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات ١٠. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في الاخوة الإسلامية: (ان الله تبارك وتعالى قد اذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، الا ان الناس من ادم وادم من تراب، ان اكرمكم عند الله اتقاكم)[١].

وكان الامام علي عليه السلام يسير على نهج القران والنبي صلى الله عليه وآله. عن الامام الصادق عليه السلام: "لما ولي علي عليه السلام صعد المنبر حمد الله واثنى عليه ثم قال: اني والله، لا أرزؤكم من فيئكم درهما ما قام لي عذق بيثرب) فلتصدقكم انفسكم، افتروني مانعا نفسي ومعطيكم، فقال اليع عقيل بن ابي طالب فقال له الله لتجعلني فاسود بالمدينة سواء، فقال عليه السلام: اجلس اما كان هنا احد يتكلم احد غيرك، ما فضلك عليه الا بسابقة أو تقوى"[٢].

وعند تفرق الناس عنه وذهابهم إلى معاوية طلبا لما بين يديه من الدنيا فقالوا: يا أمير

المؤمنين اعط هذه الاموال وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن تخاف عليه من الناس فراره إلى معاوية فقال لهم عليه السلام: اتأمروني ان اطلب النصر بالجور، لا والله ما افعل، ما طلعت شمس ولا لاح في السماء نجم والله لو كان مالهم لي لساويت بينهم كيف وانما هي اموالهم)[٣]. وبالرغم من ان الإسلام كان واضحا في هذا الشأن، الا ان الحياة على ارض الواقع في الكوفة وفي غيرها لم تكن تتسم بما تتحدث عنه النظرية الإسلامية فكان التمييز واضحا في وجوه عدة.

لقد كان عدد الموالي في الكوفة في الجيش كما تذكر المصادر التاريخية في زمن زياد بن ابيه عشرون الفا، وهذا يعني انهم كانوا في عهد الامام علي عليه السلام يشكلون نسبة علية من المجتمع الكوفي، وفي رأي فلها وزن كانوا اكثر من نصف سكان الكوفة يحتكرون الحرف والصناعات والتجارة وكان اكثرهم فرسا [٤] .

حين تولى الامام علي عليه السلام استجابة للمبايعين له بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان، عزل الولاة الذين عينهم عثمان وكان يريد بذلك تغيير سياسة الدولة الإسلامية في كل امصارها، وحين رفض معاوية بن ابي سفيان امر العزل وظل واليا بلا شرعية على الشام. انشغل الامام علي عليه السلام في حروب طويلة كان فيها يشكو من تخاذل اتباعه عن نصرته ومخالفتهم لأمره وخاصة في صفين.

وقد بدأ البحث بتعريف بالأقليات العرقية في مدينة الكوفة والقبائل والاعراق التي كانت تسكنها وسياسة الإسلام مع الاعراق، كما تناول البحث موضوع الموالي، وطريقة التعامل معهم، كما مر البحث على موقف الإسلام من العصبية القبلية. كما تناول البحث منهجية الامام علي عليه السلام في التعامل مع الاقليات الموجودة في الكوفة بطريقة عادلة، كشفت عن الوجه الانساني له، مما لم يسبقه اليها احد من قبل.

وقد شمل البحث على قائمة بالمصادر والمراجع المختلفة.

المبحث الأول

مقاربة في التعريف: الامام علي عليه السلام

الامام علي عليه السلام هو علي بن ابي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي أمه فاطمة

ابن اسد الهاشمية أو ائمة الشيعة، ويعده اهل السنة رابع الخلفاء الراشدين. ولد يوم (١٣رجب /٢٣ق. هـ) الموافق (١٧ مارس / اذار / ٥٩٩م) في مكة المكرمة، وفي جوف الكعبة[٥] وتوفي في ٢١ رمضان سنة ٤٠ هـ الموافق ٢٧ /١/٦٦١م وسمي بـ (وليد الكعبة)[٦]، ولم يسبق لاحد من قريش ان سمي عليا. هو ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وآله وصاحبه فيما بعد، وقد كفله حين توفي والديه وجده، وكانت مدة خلافته في الكوفة ٤ سنوات. ويعد اول الائمة من الامامية، ويعده السنة رابع الخلفاء الراشدين

الاقليات العرقية:

الاقليات لغة:

الاقليات جميع اقلية، من قلل، والقلة خلاف الكثرة، وقوم قليلون اقلاء، ويكون ذلك في العدد[٧]، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ الاعراف ٨٦.

الاقليات اصطلاحا:

لم يعرف مصطلح الاقلية في التأريخ الإسلامي، بدلالته المعاصرة التي تذكرها العلوم السياسية والاجتماعية. والاقليات بالتعريف المعاصر تعني مجموعة خصائص تفارق بها الاقلية الاغلبية، فانما صارت اقلية لكونها اقل عددا ولديها خصائص تفارق بها الاغلبية العددية من المقومات الطبيعية أو الثقافية ويؤدي هذا الاختلاف إلى تدني نصيبها من القوة السياسية والاجتماعية [٨].

وعرفت الاقلية ايضا: كل مجموعة بشرية أو عرقية أو قبلية أو لغوية أو دينية داخل الدولة لا تهيمن على النظام السياسي. واذا كان حجمها الديمغرافي اكبر عددا، كما كان حال الشيعة في العراق ابان حكم الطاغية صدام حسين.

فالأقليات العرقية هي الاقليات التي يجمعها عرق ما، وان كانوا يتصدون مع الاخرين في الدين نفسه والطائفة نفسها. وعادة ما يميزون بها، وهم اقل عددا من الاغلبية الحاكمة في الدولة من ناحية العرق، أو الاصل العرقي، واحيانا كثيرة في اللغة. وعلى الرغم من ان الاقليات ظاهرة تاريخية قديمة الا ان مفاهيمها بقيت غامضة على المستوى الاصطلاحي[٩].

والدين الإسلامي لم يعرف هذا المصطلح في تاريخه الا في القرن التاسع عشر الميلادي في ظل الدولة العثمانية [١٠]. لكن الحضارة الإسلامية عرفت مصطلحات اخرى لها مفاهيمها الخاصة التي كانت تعبر عن الاخرين الذين يختلفون عن المسلمين ويعرفون بالكفار أو اهل الكتاب، فكان التمييز على اساس ديني لا عرقي، لان الإسلام وضع قاعدة عريضة للتعامل مع الناس المؤمنين من اي عرق كانوا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) فلا يسمون في الواقع اقلية أو اكثرية ما داموا مؤمنين. الا ان الواقع العملي والتطبيقي في تأريخ الإسلام لم يكن كذلك كما سيظهر لاحقاً.

الكوفة:

الكوفة بالضم هي الارض الرملة الحمراء المجتمعة وقيل المستديرة[١١]، أو كل رملة تخالطها حصباء. أسسها سعد بن ابي وقاص كمعسكر عام (١٨هـ)[١٢]، بعد معركة القادسية زمن خلافة عمر بن الخطاب، بالقرب من مدينة الحيرة، حاضرة المناذرة، وقد صارت قاعدة جيش المسلمين لمهاجمة المدائن، حاضرة الفرس الساسانيين، وكانت تسمى (كوفة الجند). اتخذها الامام علي عاصمة لخلافته، ومع الزمن اصبحت للكوفة مكانة مهمة في مجال السياسة والحرب. وقد هاجرت اليها العديد من القبائل العربية، حتى امست ففيما بعد ملتقى طرق عسكرية وتجارية، ومنطلقا لحجاج بيت الله وسوقا تجاريا كبيرا لعرب الجزيرة.

تم اختيارها لاعتدال مناخها وتوفر المياه العذبة ومما يوفر الراحة والاستقرار فيها، وقد بنيت بعد عامين من انشاء البصرة، جنوب العراق، بنيت بجانب اكبر الحضارات العراقية (الحيرة)، وفي الفرات الاوسط، الوارث للتراث الحضاري العراقي (البابلي - السومري) بما جعلها تكتسي صفات استثنائية، وتبزغ منها الروح الابداعية العراقية المخزونة في هذه المنطقة منذ الاف السنين[١٣].

من هنا اصبح واضحا ان البحث يتناول مسيرة وسلوكك الامام علي عليه السلام ومنهجه في التعامل مع الاقليات العرقية لما ففي ذلك من خصوصية، صارت نادرة فيما بعد، مع مجيء الامويين للحكم. والبحث يبحث عن فرادة سلوكه هذا ابان خلافته في الكوفة، ولما كان فيها عدد كبير من الموالي، حيث ذكر ياقوت الحموي نقلا عن الشعبي ان في الكوفة ايام

الحكم الاموي، خمسون الف دار للعرب من ربيعة ومضر، واربعة وعشرون الفا لسائر العرب، وستة الاف لسائر المسلمين، اي من غير العرب، الذين كانوا يسمون بالموالي، وبالتالي فان البحث لابد ان يتناول بالتعريف المفردة المقابلة للأقليات العرقية وهي الموالي ليظهر لنا الامر جليا ومفهوما اكثر.

الموالي في الإسلام:

تعريف الموالي في اللغة:

للكلمة اطلاقات عديدة، وقد تعني معنيين متضادين كالسيد والعبد مثلا. وتعني مثلا:

١- المولى ويراد به السيد ام المالك[١٤] كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الانعام: ٦٢.

٢- تطلق كلمة المولى على الناصر[١٥]، كما في قوله تعالى ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ ال عمران: ٥٠. وتطلق على الحليف، وهو الذي يقال له مولى الموالاة[١٦].

٣- تطلق على العبد والمعتق. ولهذا قيل للمعتقين الموالي[١٧].

وهو على اربعة انواع: ولاء السائبة والعتاقة والموالاة والاصطناع[١٨]. الا انها اتسعت فشملت كل من دخل الإسلام من الاعاجم. لذا فتعريف الموالي اصطلاحا هو: كل من اسلم من غير العرب، سموا بذلك لان هؤلاء اما ان يكونوا في الاصل اسرى حرب استرقوا، ثم اعتقوا فصاروا موالي، واما ان يكونوا من اهل البلاد المفتوحة، وهؤلاء حينما كانوا يسلمون ينضمون إلى العرب ويدخلون في خدمتهم ويتحالفون معهم لكي يعتزوا بشوكتهم وقوتهم. وبذلك يصبحون موالي ايضا بالحلف والموالاة[١٩].

الموالي في الكوفة:

كان اول الوافدين على الكوفة بعد العرب هم الفرس والنصارى السريان ويهود نجران. وكان عدد الفرس - كما يقول البلاذري - اربعة الاف ممن قاتلوا في معركة القادسية وجلولاء. وكان لهم نقيب يقل له (ديلم) أو دهقان فاطلق عليها (حمراء ديلم) لان العرب

ككانت تسمي العجم (الحمراء).

اما السريان فقد سكنوا الكوفة، حيث كانوا يسكنون الاديرة التي كانت قائمة في اطراف الحيرة والنجف. وتوثقت صلاتهم بالمجتمع الإسلامي الجديد، وتعاطوا التجارة والصيرفة، يضاف إلى ذلك هجرة جماعات من النبط سكان البطايح المجاورة فانضموا لسكانها العرب القادمين من الجزيرة ثم توالت الهجرات.

واصبحت الكوفة محطا للقبائل العربية من اليمن وحضرموت، وقسمت منذ تأسيسها إلى سبعة احياء خصص كل حي منها لقبيلة معينة، مثل قبيلة اسد، والنخع، وكندة، ومزينة، وتميم، وجهينة، وبقيت تلك الاحياء قائمة حتى حكم عثمان بن عفان وحينها قدم الامام علي بن ابي طالب عليه السلام بعد موقعة الجمل سنة ٣٦هـ، واجرى تعديلات في توزيع احيائها، وظل هذا النظام معمولا به حتى اوائل القرن الرابع الهجري.

المبحث الثاني

الاقليات في عهد الرسول صلى الله عليه وآله

ـ العصبية القبلية في تاريخ العرب وموقف الإسلام منها.

عن ابن جرير الطبري: ان الموالي هي العصبية في الجاهلية، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لها اسما، فقال تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (الاحزاب: ٥)، فسموا بالموالي [٢٠].

والعرب كانوا يشعرون إلى حد كبير بالعصبية القبلية، وكانوا على الرغم من تأخرهم في الاخذ بالأسباب المدنية، يغالون في تقدير انفسهم، ويعتزون بقبائلهم[٢١]، لكن الإسلام حاول اخماد هذه الجذوة العصبية، فلا اهتمام بالأنساب بل بالتقوى والعمل الصالح. كان قد اشاع مفهوم ان الناس جميعا يعودون لادم وادم من تراب. وان من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه [٢٢].

كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد مهد لإلغاء العصبية من خلال المؤاخاة التي اخت بين الانصاري والمهاجر. التآخي بين القبائل المتعددة. ذكر ابن سعد ان النبي صلى الله عليه وآله اخي بين أبي

عبيدة بن الجراح الفهري وبين سالم بن معقل مولى ابي حذيفة [٢٣].

الاقليات العرقية في صدر الإسلام:

الموالي كانوا اقلية عرقية في الخلافة الإسلامية، اي الدولة التي تشكلت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله والتي اخذت طابع الدولة بكل مقوماتها الارض والسيادة والشعب والقانون الحاكم، وهي الشريعة التي اكتملت بوفاة الرسول صلى الله عليه وآله. لقد تركنا التسمية الدينية لهذه الاقلية، فهم اصبحوا ابناء هذه الارض وصاروا مواطنين فيها بالمفهوم الحديث للمواطنة التي تعني مشاركة الافراد في الحقوق والواجبات في البلد الذي يعيشون به بصرف النظر عن اثنياتهم واصولهم واديانهم وقد تعني العلاقات بين الفرد والدولة حيث يدين الموطن بالولاء وتتولى الدولة الحماية ورعاية المصالح[٢٤] ودولة الخلافة هنا فيها صفات الدولة الحديثة وان كانت صفتها ثيوقراطية تستمد قوانينها من القانون الهي المرسل[٢٥].

الاقليات العرقية في عهد الرسول صلى الله عليه وآله:

عاش المسلمون من غير العرب في عهد الرسول صلى الله عليه وآله حياة مثالية. يقول ابن الاثير:" في يوم فتح مكة، اعظم ايام الإسلام، امر رسول الله صلى الله عليه وآله بلالا ان يؤذن فوق ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال والاطام، منهم من يطلب الامان ومنهم من قد امن فلماذا اذن بلال استعظم القرشيون ان يؤذن بلال وهو "مولى" فوق ظهر الكعبة، حتى انطلقت الالسنة فمنهم من قال: لقد اكرم الله ابي اذ لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة، ومنهم من قال ليتني مت قبل هذا اليوم [٢٦]، وفي موقف اخر وقف رسول الله صلى الله عليه وآله فخطب في الناس: ايها الناس ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بإبائها، الناس من ادم وادم خلق من تراب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات ١٣. ذكر الطبرسي في تفسيره مجمع البيان ان الآية نزلت يوم فتح مكة[٢٧].

وقد اكد الرسول صلى الله عليه وآله هذا الموقف من الموالي في حجة الوداع بعد عامين من فتح مكة فقال "أيها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد، كلكم لادم وادم خلق من تراب، لا فضل لعربي على اعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لاسود على احمر ولا لاحمر

على اسود الا بالتقوى، ان اكرمكم عند الله اتقاكم"[٢٨].

الأقليات العرقية بعد وفاة الرسول:

إن امتهان الاقليات العرقية غير العربية كان موجودا قبل الامويين كما يظن بعض المؤرخين الذين يؤرخون هذا التميز ويرجعونه إلى الفترة الاموية.

فإنه كان موجودا منذ أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، إذ لم يسمح للعجم دخول المدينة المنورة فقد كان الامر مألوفا ذلك في عهده[٢٩].

كما انه منع من لبس لباس العجم، فكان عمر بن الخطاب قد كتب إلى من كان مع عينه من فرقد الاذربجاني: اياكم والتنعم وزي العجم، والعجم هو كل انسان غير عربي سواء كان مسلما ام لا. فالعربي ممنوع من لبس زي العجم[٣٠]. كما نهى عمر ان يتزوج العجم من العرب بالرغم من كونهم مسلمين، وقال: لا منعن فروجهن الا من الاكفاء.

وهنا يعد ان غير العربي غير كفوء للعربي لان التزويج يشترط فيه الكفاءة بين الطرفين المتصاهرين، ومن المعروف ان الكفاءة تكون في الدين وليس في النسب، لان الإسلام نهى عن التفاخر بالأنساب[٣١]. وعندما رأى الخليفة عمر ان الناس احرار في استرقاق العجم، لم يستحسن استرقاق العرب[٣٢]. وكان عمر قلقا بسبب استخدام العجم في ادارة الشؤون المختلفة[٣٣]. وروى ابن جريج: ان الخليفة كان يطوف فرأى شخصين يتكلمان بالفارسية فطلب منهم التكلم بالعربية، واضاف: ان من تعلم الفارسية تموت مروءته[٣٤].

واستمرت هذه السياسة في عهد عثمان بن عفان حتى صار العرب يرون ان المسلمين من غير العرب (الموالي) خلقوا لاعمال من قبيل كسح الطرق وخياطة الثياب[٣٥].

الأحاديث الضعيفة والموضوعة ضد الاقليات العرقية:

هناك جملة من الاحاديث وضعت ضد الموالي والاعاجم، فزعموا ان الرسول قال "ابغض الكلام إلى الله الفارسية وكلام الشيطان"[٣٦]، وقال: "اذا غضب الله تعالى انزل الوحي بالفارسية، واذا رضي انزله بالعربية"[٣٧] وكذلك وضعوا احاديث في ذم الزنوج نحو: "اياك والزنوج فانه خلق مشوه"[٣٨].

وهناك احاديث رويت في فضل العرب على العجم، مثل ما رواه مسلم في صحيحه ان رسول الله قال: "ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريش من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"(٣٩).

قال ابن تيمية تعليقا على الحديث " هذا يقتضي ان اسماعيل وذريته صفوة ولد ابراهيم، فيقتضي انهم افضل من ولد اسحاق، ومعلوم ان ولد اسحاق - الذين هم بنوا اسرائيل - افضل العجم ما فيهم من النبوة والكتاب فمتى ثبت الفضل لهؤلاء فعلى غيرهم بطريق الاولى وتدل ايضا ان نسبة قريش إلى العرب كنسبة العرب إلى الناس"(٤٠). وقال ابن تيمية أيضاً: "بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر أو سبب لكفر لان منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وعامة اصحابه " وقال: ان عمر بن الخطاب لما وضع ديوان العطاء كتب الناس على قدر انسابهم، فبدا بأقربهم نسبا إلى رسول الله ص فلما انقضت العرب ذكر العجم. وقال ابن تيمية ايضا: "وجمهور العلماء على ان جنس العرب خير من غيرهم"(٤١).

وقد روى ابن ابي شيبة، وكذلك الطبري في تهذيب الآثار. ان جماعة من الصحابة قالوا لسلمان الفارسي رضي الله عنه: "صل بنا يا ابا عبد الله انت احقنا بذلك فقال لا، انتم بنوا اسماعيل الائمة ونحن الوزراء. وروي عن سلمان رضي الله عنه قوله: " اثنتان فضلتمونا بها يا معشر العرب لا ننكح نسائكم ولا نؤمكم".

وفي رواية: "انا لا نؤمكم ولا ننكح نسائكم ان الله هدانا بكم"(٤٢). قال ابن ابي حاتم في "العلل" سالت ابي وابا زرعة عن حديث رواه سفيان واسرائيل عن ابي اسحاق عن ابي ليلى الكندي قال: " قال سلمان لا نؤمكم ولا ننكح نسائكم"(٤٣). وروي ايضا روايات عن الزنوج مثل "اياكم والزنوج في التزويج"(٤٤). وكان هناك من العرب من يتأسف لتدوين الحديث من قبل الموالي(٤٥).

المبحث الثالث

منهج الامام علي عليه السلام مع الاقليات العرقية:

لا يوجد شخص راسخ في الوعي التاريخي، هزم الدنيا بإغوائها واغرائها مثل علي بن أبي طالب عليه السلام.

بطولة علي في الحق والعدل والزهد، لا يعادلها شخص اخر في وعي الناس والتاريخ عبر العصور التي تلت وجوده. ما يجعل علي راسخا في الوعي التاريخي هو كثرة مزاياه الالهية الخرقة للعادة، فغدت شخصيته لغزا لا يعرفه احد [٤٦]. ويتضح هذا من كلمة النبي صلى الله عليه وآله بحقه التي تفيد هذا المعنى، اذ يقول "يا علي ما عرف الله الا انا وانت، وما عرفني الا الله وانت، وما عرفك الا الله وانا"[٤٧].

يقول النظام احد علماء المعتزلة "علي بن ابي طالب محنة على المتكلم ان وفي حقه غلا، وان بخسه حقه اساء، والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حادة الشاف، صعب الترقي الا على الحاذق الدين"[٤٨]، وقد عبر النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام بالقول "ان فيك لشبها من عيسى بن مريم، احبيته النصارى حتى انزلته بالمنزلة التي ليست لك، وابغضته اليهود حتى بهتت امه"[٤٩] ويقول الامام عن نفسه "هلك في رجلان محب غال ومبغض قال"[٥٠].

بدون سيف علي عليه السلام لم يستطع الإسلام ان يهزم المشركين في المعارك التي كان يقودها النبي صلى الله عليه وآله، واحتاج اليه النبي في كل المعارك والمواقف الصعبة، وكان علي عليه السلام يقول "انا من رسول الله كالعضد من المنكب وكالذراع من العضد، وكالكف من الذراع".

في عهد الامام علي عليه السلام كانت المساواة تامة حتى ان جماعة من العرب سالوا عليا قالوا يا امير المؤمنين اعطي هذه الاموال وفضل هؤلاء الاشراف من العرب على الموالي والعجم فقال لهم: اتأمروني ان اطلب النصر بالجور[٥١]، في الوقت الذي كان المسلمون منقسمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان واراد هؤلاء المسلمون ان يفضل في العطاء باستمالة العرب اليه. وكان الامام عليه السلام يعطي الناس بالسوية ولم يفضل احدا على احد واعطى الموالي كما اعطى العرب وكانت حجته ان اولاد اسماعيل لم يفضلوا على اولاد اسحق في كتاب الله [٥٢].

إن الظلم الذي لحق بالموالي في المجتمع الإسلامي، دفعهم إلى بث الشكوى عند علي عليه السلام فقال الامام "يا معشر الموالي ان هؤلاء صيروكم بمنزلة اليهود والنصارى يتزوجون اليكم ولا يزوجوكم مثل ما يأخذون، فاتجروا بارك الله فيكم[٥٣].

ISNN 1997-6208

اصلاحات الامام علي عليه السلام السياسية والادارية في الكوفة:

استلم الامام علي عليه السلام الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، في ٢٥ ذي الحجة عام ٣٥هـ، فقام بعده اصلاحات ادارية واقتصادية وسياسية، نذكر اهمها:

١- عزل ولاة عثمان بن عفان: وذلك لانهم قد سخروا الحكم إلى مصالحهم الخاصة، واثروا ثراء فاحشا مما اختلسوه من بيوت المال وعزلة لمعاوية بن ابي سفيان.

٢- اعاده الاموال التي اخذت بدون وجه حق: اصدر الامام عليه السلام بإعادة القطائع التي اقطعها عثمان لذوي قرباه، والاموال التي استأثر بها عثمان. وقد صودرت امواله حتى سيفه ودرعه، وارجعها الامام علي عليه السلام إلى بيت المال. وهذا ادى إلى فزع بنو امية اشد الفزع، لانهم عرفوا الامام صادر اموالهم التي اعطاهم لهم الخليفة عثمان بن عفان فكتب عمرو بن العاص رساله إلى معاوية جاء فيها: ماكنت صانعا فأصنع اذا قشرك بن ابي طالب من كل ما تملكه كما تقشر عن العصا لحاها وكانت سياسته المالية التي انتهجها، هي:

أ- المساواة في التوزيع والعطاء، فليس لاحد على احد فضل أو امتياز، وإنما الجميع على حد سواء. فلا فضل للمهاجرين على الانصار، ولأسرة النبي صلى الله عليه وآله وازواجه على غيرهم ولا لعربي على غيره اختلاف قومياتهم. فالمساواة كانت في الحقوق والواجبات وفي العطاء وامام القانون. وهذا ادى إلى غضب قريش عليه .فقد الزم الامام عماله وولاته بتطبيق المساواة بين الناس.

ب- عدم الاستئثار باي شيء من اموال الدولة فقد تحرج الامام عليه السلام فيها كأشد ما يكون التحرج(٥٤).

سبب اختيار الامام علي للكوفة لتطبيق سياسته الاصلاحية:

إن المدينة المنورة لم تكن شديده الولاء للإمام علي عليه السلام فان ولائها كان متجها إلى غير الامام وإلى غير اهل البيت صلى الله عليه وآله، لأن الامويين ومناصريهم والزبيرين ومن ينتمي اليهم من اهل لأطماع ممن لم يؤمنوا حقا بالإسلام، كان هؤلاء اقرب إلى الناكثين والقاسطين لولاية الامام بعد عثمان.

إن الجيل الجديد في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياه الصعبة التي تطلبها الحروب الطاحنة التي خاضها الامام علي عليه السلام،لان شباب المدينة اعتادوا حياه الرخاء والدعة لانهم صاروا يعيشون على العطاءات السخية التي كان يقدمها عليهم الخلفاء الذين سبقوا الامام علي عليه السلام.

ولأجل حفظ العراق من تأثير نفوذ معاوية وبني امية، فكان لابد من تدارك لأمر وحفظ العراق، واختيارها عاصمه للخلافة الإسلامية، فكانت الكوفة تقع في وسط الدولة الإسلامية، وكانت تملك الطاقات البشرية، التي تؤمن القوات الكافية في مواجهه اي تحرك لمعاوية أو لغيره، وهي ايضا قادره على تمويل الجيش لما تملكه من ثروات زراعيه لوقوعها على نهر الفرات.

وكانت ذات موقع تجاري سواء الفرس أو إلى العرب. فاختارها الامام لما تملكه من ابعاد استراتيجيته يساهم في تعزيز دور الإسلام في المستقبل ولكن نهج الامام بالمساواة، ونهج الحق القويم الواضح لم يترك له الانصار الذين ينصرونه كما رغب وطلب، فظهرت الفتن، واستعرت الحروب، وظهروا الخوارج وكله يعود لبغض العرب له لما قام به من جهاد ايام الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، من قطع دابر العرب الذين لم يسلموا وكذلك يعود البغض إلى سياسه المساواة التي قام بها في العطاء امام القانون، ونفي الحسب والنسب، عاملا بسياسة الإسلام التي سنها النبي محمد صلى الله عليه وآله في المساواة بين الناس، فهو الذي قال لمالك الاشتر: الناس صنفان اما اخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق(٥٥). ان هذه المقولة التي اطلقها الامام منذ ١٤٠٠ سنة تقريبا، فيها من النزعة الانسانية مالم تعرفه تلك المجتمعات، ولا تلك التي ولدت حديثا ببعثه الرسول محمد صلى الله عليه وآله، فهو حصر الرابطة بين الناس، امام الاخوة الدينية أو التناظر والتشابه في الخلق اي الانسانية. ولم يذكر اي تمييزات أخرى كاللون والعرق أو الجنس أو النسب، ومن هنا فان النظرة هنا لم تنظر إلى الانسان على انه اخر بل انها جاءت لترتفع بالنظرة إلى الانسان بعيدا عن هذا المفهوم(٥٦)، لان المفهوم الاخر في الوعي الإسلامي العربي في ذلك الحين على انه العدو المختلف الذي يفترض به ان يدخل في الدين الجديد الحق. كما يرونه هم واضحا وجليا، بينما الامام علي عليه السلام ينظر إلى الانسان اي انسان انه مخاطب بالدين الجديد وبالدعوة إلى الإسلام، على ضوء الحرية الانسانية،

فالإمام لم يدن الخوارج لانهم اعتنقوا مذهبا فاسدا بل الانهم خرجوا عليه بالسيف.

أما علاقه العرب بغيرهم، تلك النظرة المتأثرة بالعصبية القبلية، فان الامام علي عليه السلام، كان متحررا منها، متحلياً بأخلاق وفلسفة الإسلام في رؤيته للناس، وان الاختلاف بين البشر مسالة طبيعية لا تستدعي ان يتم التمايز الحقوقي فيها، أو تستتبع احكاما فقهيه خاصه تميز بين العربي وغيرة بحجه ان النبي محمد صلى الله عليه وآله كان عربياً، وان العرب لهم الفضل على العالمين، وذلك لان المكافئة ستكون أخروية وثواب الهي على حسن الإسلام المرء، بغض النظر عن عرقه، أو لونه أو لغته والا فأن ذلك يناقض العدالة الالهية التي اراد الإسلام ان يوضحها ويبينها، فجاء الدين الإسلامي رافعا لهذا الشعار بين الناس الا وهو شعار العدالة.

من هنا كانت الكوفة محط اصلاحات الامام، وان واجهت اتباعا مع استيلاء الامويين على الحكم ولفتره طويلة.

ومن هنا ايضا صار الامام علي صوت العدالة الانسانية في واقع عشائري قبلي لم يهضم ولم يفهم كثيرا سياسه الامام المساواتية في مجتمع يرى التمايز والتفاضل في الانساب هو المعيار الابرز في المجتمع الإسلامي وبين المسلمين ومن هنا انطلقت مسألة الكفاءة في الزواج على اساس العرق، وان غير عربي غير كفوء للعربي وغيرها من الاحكام.

لم ينجح الامام، ليس الخطأ في النظرية أو صاحب النظرية بل ان الامر اكثر تعقيداً، خاصا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ورد الناس إلى مفاهيم الجاهلية روجت من قب القيادة العليا للخلافة تأثرا بخلافتها البدوية القبلية وحبا للامتيازات المادية والسلطة.

الخاتمة:

إن نهج الامام علي عليه السلام مع الاقليات العرقية كان يسير على نهج الإسلام الاصيل، الذي سنه محمد بن عبدالله النبي الاكرم صلى الله عليه وآله والذي طرحه القرآن بصورة جلية، الا ان الخلافة التي اعقبت عهد الرسول صلى الله عليه وآله قد شابها الكثير من الابتعاد عن المفاهيم التي سنها الإسلام حديثا، فلم يستطع الجاهليون الذي دخلوا الإسلام خوفا أو طمعا ان يستوعبوا المفاهيم الجديدة، التي تساوي بين الغني والفقير، والابيض والاسود، والسيد والعبد،

ISNN 1997-6208

والعربي والاعجمي، والمرأة والرجل، لذلك ووجدنا في التاريخ الإسلامي ممارسات بعيدة عن المفاهيم الانسانية التي ارادها الإسلام ان تسود بين الناس، وحين تولى الامام علي عليه السلام العهد بالخلافة حاول ارجاع الامور إلى نصابها الاول، فساوى بين الناس في العطاء وامام القانون، مما ولد له عداوات كثيرة، خاصو وانهم وجدوا قبله من قام بإعطائهم الامتيازات الخاصة لقرب نسبهم من قريش ام لكونهم من العرب، واستبعد غير العرب لمجرد انتماءهم العرقي، فعاملوهم معاملة بعيدة عن روح الإسلام العادلة، ومن هنا تبرز عظمة الامام علي عليه السلام وفرادته وتميزه وصلابته في الحق. ومن هنا صار الناس وخاصة الفقراء والموالي والمستضعفون يرون فيه البطل الامثل الذي سخر بطولته كلها لأجل الحق واعلاء كلمة الله في الارض واقامة العدل ومحاربة الجور ولو كان ذلك على حساب ذاته وخلافته، ولذلك ليس من الغرابة ان نجد الناس عبر التاريخ قد حاروا في تقويمه ووضعه في سلم العظماء لما تميز به من خصال لا ينافسه عليها احد من العالمين الا الرسول صلى الله عليه وآله.

Abstract

The doctrine of Al-Emam Ali (Peace be upon him) with the Ethic minorities was going according the doctrine of Islam which was offered by the Prophet Mohammed (Peace be upon him and his family) and which was written in Holly Quran. But after the death of the Prophet (PEUH)، the caliphate had adopted some different attitudes which different from the principles of Islam. New Muslims could not understand the principles of Islam which equal between the rich and the poor، between the white and the black، between the master and the his servant، the Arabian and the others، the man and the woman. Therefore we find so many attitudes which were against Islam.

When Al-Eman Ali (PBUH) became the caliphate، he tried to bring back and apply all the lost principles of Islam concerning the equality among people. Those attitudes made so many hostile attitudes against his policy.

ISNN 1997-6208

Al-Emam Ali dealt all people according the basic principle of the soul of Islam. The poor and the minorities welcomed the new policy of Al-Emam Ali and considered him as the hero of Islam and the saver of their rights. The poor، the weak، and all the minorities found the man who was able to get back their rights which were taken through the period of others. They considered him as the real successor of The Prophet Mohammed (Peace be upon him and him family).

هوامش البحث

(١) الوافي، في وصية النبي لعلي عليه السلام، ج ١٤.
(٢) الكافي، البحار، مج٩، ص٣٩٥.
(٣) الكافي، البحار، مج ٩، ص٥٣٣.
(٤) امين، احمد، فجر الإسلام، ص٩٣.
(٥) المسعودي، ابو الحسن، مروج الذهب، ج٢، ص٢.
(٦) القزويني، نقلا عن العقل العراقي في المجتمع العراقي، ص٢٨٨.
(٧) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص١٣٥٦..
(٨) الاقليات والاستقرار السياسي في الوطن العربي، مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، ط١، ١٩٨٢، ص٧-١٥. ظ كذلك: الاقليات واحكامها في الفقه الإسلامي: فاروق، بتول، دار الضياء، النجف، ٢٠٠٩، ص١٤.
(٩) فاروق، بتول، الاقليات واحكامها، م. س، ص١٥ - ٢٤٢.
(١٠) سمير سليمان (الدكتور)، حقوق الاقليات في المجتمع الإسلامي، مجلة المنهاج، عدد ١٠، ص٢٨٥.
(١١) الزيدي، مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس.
(١٢) الطبري، تاريخ الطبري.
(١٣) ظ: العقل في المجتمع العراقي بين الاسطورة والتاريخ، شاكر شاهين، دار التنوير، ط١، ٢٠١٠، ص ٣٣٢.
(١٤) ابن منظور: لسان العرب / ج ١٥، ص ٤١١، الفيروزابادي: القاموس المحيط : ص ١٧٣٢.
(١٥) م. س، ج ١٥، ص ٤١١.
(١٦) الفيومي: احمد بن محمد بن علي (ت: ٧٧٠ هـ): المصباح المنير، المطبعة اليمنية، مصر، ط بلا، ١٣١٣ هـ، ج٢، ص١٤٩. كذلك: ابن منظور، المصدر السابق، ص ٤١١.
(١٧) ابن منظور: لسان العرب، م، ن، ص ٤١١.

ISNN 1997-6208

(١٨) حسين، عماد علي عبد السميع (الدكتور): الموالي ودورهم في الدعوة إلى الله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٤ م، ص ٢٧-٢٨.
(١٩) النجار، محمد الطيب: الموالي في العصر الاموي، ص١٥.
(٢٠) الطبري: ابن جرير: جامع البيان في تفسير القران، الباب الحلبي، القاهرة / ط٢، ١٩٨٦م، ج٥، ص٥١.
(٢١) فاروق، بتول (الدكتورة): الاقليات واحكامها في الفقه الإسلامي، دار الضياء، النجف، ٢٠٠٩، ص٢٤٧.
(٢٢) ابن ماجه: السنن / ج١، ص ٨٢.
(٢٣) ابن سعد، محمد (ت: ٢٣٩ هـ): الطبقات الكبرى / ط: بلا، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٣، ص ٢٣٣.
(٢٤) بيلو، روبير، الموطن والدولة، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت / باريس، ط٣، ١٩٨٣، ص ١٣.
(٢٥) دكي، ليون، دروس في القانون العالم، ترجمة: رشدي خالد، مركز البحوث القانونية، بغداد، ط بلا، ١٩٨١، ص ٦١.
(٢٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ط بلا، ١٩٨٧، ج٢، ص١٧٢.
(٢٧) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القران / ج٥، ص ١٣٦.
(٢٨) رواه الامام احمد في المسند، ج٥، ص١١. كذلك الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص٣٣.
(٢٩) الصنعاني، ابو بكر عبد الرزاق، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الاعظمي، المجلس العلمي، د.م، ط بلا، د.ت، ج٥، ص ٤٧٤. و ج٦ ص ٥١، ٤٥.
(٣٠) م. ن.
(٣١) ابن شاذان، الفضل الازدي النايسابوري، الايضاح، تح: جلال الدين الحسيني، ط بلا، د.ت، ص ١٠٣.
(٣٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ج٢، ص ٣٨.
(٣٣) الصنعاني، المصنف، ج١١، ص ٤٣٧.
(٣٤) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٢٥٠ ؛ كذلك السهمي، حمزه بن يوسف بن ابراهيم، تاريخ جورجان، عالم الكتب، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م، ص ٤٨٦.
(٣٥) الاندلسي، ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح: احمد امين، احمد الزين، ابراهيم الابياري، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ط ١٩٥٢، ج٣، ص ٤١٤.
(٣٦) ابن حبان بن احمد، ابي حاتم التميمي البستي، كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تحقيق: محمد ابراهيم زايد، ط بلا، ب. ت، ج١، ص ١٢٩.

(٣٧) ابن قيم الجوزية، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، دار الاثار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢، القاهرة، ص ٥٩.

(٣٨) ابن حبان، م. س، ج٢، ص ٢٨٦.

(٣٩) مسلم، صحيح مسلم، ١ / ٢٢٧٦.

(٤٠) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج ٢، ص ٢٠٧.

(٤١) ابن تيمية، م. س، ص ٢٩.

(٤٢) ابن ابي شيبة، المصنف، ج٢، ص ٣٣٦.

(٤٣) الرازي، ابن ابي حاتم، علل الحديث، تحقيق: سعد بن عبدالله الحميد، خالد بن عبدالرحمن الجريسي، طبع المكتبة الوقفية، ط١، ٢٠٠٦، ج٢، ص ٤٠٦.

(٤٤) الاصبهاني، ابو نعيم، احمد بن عبدالله، ذكر اخبار اصفهان، مط بريل، ليدن، ١٩٣٤، ج١، ص ٣١٤.

(٤٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص ٣٨٨.

(٤٦) العقل في المجتمع العراقي، شاكر شاهين، م س، ص ٢٨٧.

(٤٧) مناقب ال ابي طالب، محمد بن علي بن شهراشوب، ج١، ص .

(٤٨) بحار الانوار، المجلسي / مجج ٨، ص ٣٢٤.

(٤٩) شرح نهج البلاغة لابي الحديد المعتزلي، ابن ابي الحديد، ج٤، ص١٠٥.

(٥٠) م. س.

(٥١) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٧، ج١، ص ١٨٢.

(٥٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن وهب، ط١، النجف، ج٢، اخر واقعة الجمل، ص١٢٧.

(٥٣) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول، ط طهران، ١٣٢١ هـ، ج٣، ص ٤٤١.

(٥٤) اصلاحات الامام علي عليه السلام السياسية والادارية ..www.haydarya.com

(٥٥) نهج البلاغة، عهده لمالك الاشتر.

(٥٦) الميلاد، زكي، حوار حول مفهوم الاخر وعلاقة الإسلام بالآخر، مجلة العصر، عدد ٧٢، ٢٠٠٧، الكويت.